

الفصل الأول

مدخل : علم النفس وأهدافه

- * تمهيد.
- * ما هو علم النفس.
- * ما هي أهداف علم النفس : الفهم والتفسير، الضبط والتحكم، التنبؤ.
- * العلاقة بين أهداف العلم.
- * معيار تقدم العلم.

تمهيد:

لكتاب عن «علم النفس وقضايا العصر» يحسن أن نقدم بتعريف لعلم النفس مع مناقشة لأهدافه. أما عن تعريف لعلم النفس، فمما لا شك فيه أن تعريف أي علم من العلوم، وبخاصة إذا كان من العلوم الإنسانية شأن علم النفس، يعتبر شائكاً إلى حد بعيد، بحيث يكاد يستحيل على القائم به أن ينجح في وضع التعريف المثالي والذي يحقق به الخاصية الشهيرة للتعريف الدقيق من حيث كونه جامعاً مانعاً. ذلك أن الحدود الفاصلة بين علم وغيره في كثير من الحالات تكون حدوداً هولامية يكتنفها الكثير من الظلال ويشوبها الكثير من الخلط، حتى أنه نشأت علوم حديثة نسبياً تقع بين علم وآخر آخذة من هذا ومتداخلة مع ذلك. فهناك - على سبيل المثال - علم النفس الاجتماعي الذي يأخذ من علم النفس ويتداخل مع علم الاجتماع، وعلم النفس الفسيولوجي الذي يأخذ من الفسيولوجيا ويتداخل مع علم النفس، وعلم الكيمياء الحيوية الذي يأخذ من علم البيولوجيا ويتداخل مع علم الكيمياء...

إلا أن هذا الاستدراك لا ينبغي أن يعفينا من محاولة وضع تعريف لعلم النفس على نحو ما نعتقد به في هذا الكتاب الذي نبحت فيه إسهامه في دراسة بعض القضايا التي تستحوذ على اهتمامنا أو تستثير تساؤلاتنا.

ما هو علم النفس :

علم النفس هو العلم الذي يدرس سلوك الإنسان، بأوسع معنى لمصطلح السلوك، بحيث يشمل نشاط الإنسان في تفاعله مع بيئته تعديلاً لها حتى تصبح أكثر ملاءمة له، أو تكيفاً ذاتياً معها حتى يحقق لنفسه أكبر توافق معها. والسلوك بهذا المعنى الشامل الواسع يتضمن ما هو ظاهر يمكن للآخر إدراكه كتناول الطعام والشراب والمشي والجري والقفز والاعتداء بالضرب والقيام بالأعمال والوجبات كما يتضمن ما هو غير مدرك إلا من صاحبه مثل التفكير الصامت والتخيل والتذكر والأوهام والمخاوف والآمال والحزن والسرور والغضب وما إلى ذلك من انفعالات قد لا تصاحبها مظاهر مكشوفة يحسها الآخرون، بل إن السلوك يتضمن ما لا يستطيع أن يدركه حتى القائم به ذاته مثل ما يعتمل داخل النفس من دوافع ورغبات وآمال ومخاوف لا يشعر بها صاحبها، وحتى إن شعر بها فهو لا يعرف كنهها الحقيقي. لأنها لا شعورية في أساسها على نحو سلوك النائم في تخيلات أحلامه وما يراه فيها بل وحركته الفعلية أثناءها كالكلام بصوت مسموع أو المشي أثناء النوم، وعلى نحو أيضاً أعراض الأمراض النفسية ومظاهرها عموماً. كما يتضمن السلوك بالمثل ما تقوم به أجهزةنا الجسمية من نشاطات قد نستطيع الإحساس بها كالتنفس وطرفة العين، وقد لا نستطيع أن نحسها حتى لو قصدنا إلى ذلك مثل إفرازات المعدة وإفرازات السكر في الدم . . .

ومن الجدير بالذكر أن علم النفس كثيراً ما يلجأ إلى دراسة سلوك الحيوان مما يبدو مناقضاً لتعريفنا الذي عرضناه، حيث دراسته لسلوك الإنسان. لكننا ينبغي أن نذكر أن علم النفس عندما يدرس سلوك الحيوان - على الأقل حتى يومنا هذا - إنما يكون هادفاً أساساً منه إلى إلقاء مزيد من الضوء وتحقيق مزيد من المعرفة بسلوك الإنسان. وكأن علم النفس في هذا الموقف يتخذ من الحيوان سلماً لمعرفة الإنسان وفهمه، ذلك أن عالم النفس كثيراً ما يرى ضرورة إجراء تجارب لفهم سلوك الإنسان وتفسيره لكنه يعجز

عن ذلك أو تعترضه عقبات تحول دون غرضه فيستبدل التجريب على الحيوان بالتجريب على الإنسان. ونضرب لذلك مثلاً بتجربة تريون Tryon (٢): (١٣٦ -) التي قام فيها بدراسة توارث القدرة على تعلم اجتياز المتاهة في ثمانية عشر جيلاً من الفئران البيض. فكان يعرض الفئران لاختبار يقيس به هذه القدرة لدى كل منها. ثم يزوج بين أفضل أبناء جيل الآباء الممتازين في قدرتهم على تعلم اجتياز المتاهة تزواجاً انتقائياً في كل جيل من هذه الأجيال الثمانية عشرة، وفي مقابل هؤلاء كان يزوج بين أقل أبناء جيل الضعفاء في قدرتهم على تعلم اجتياز المتاهة تزواجاً انتقائياً بالمثل في تلك الأجيال. وهكذا كانت ذكور الفئران الممتازة في القدرة على تعلم اجتياز المتاهة تتزوج مع إناث الفئران الممتازة، كما كانت ذكور الفئران الضعيفة في هذه القدرة تتزوج مع إناث الفئران الضعيفة. وقد كان تريون يضبط تلك الظروف البيئية التي كانت تعيش فيها كل من مجموعتي الممتازين والضعاف مثل مكان الإقامة والتغذية والتهوية والحرارة والرطوبة. . بحيث يحقق للمجموعتين تعادل البيئة. ولقد تبين لتريون من تجربته هذه أن القدرة على تعلم اجتياز المتاهة تتأثر بعامل الوراثة بشكل واضح. وليس بخاف أن هذه القدرة يمكن أن تقابل ما يعرف بالذكاء عند الإنسان.

لقد استطاع المجرب في تجربته تلك أن يتدخل في حرية الحيوان الشخصية فجعله يتزوج مع من يحدده له، كما جعله يعيش في ظروف ضبطها له، كما تمكن نتيجة قصر دورة حياة الحيوان أن يدرس عدداً كبيراً من الأجيال في بضع سنوات قليلة، مما جعله يدرك في سهولة وسرعة واطمئنان انتقال الخصائص الوراثية من جيل لآخر، ولأجيال كثيرة، مما يكاد يستحيل عليه فيما لو أصر على التجريب على الإنسان. في هذه التجارب ومثيلاتها على الحيوان يكون الهدف المضرر أو المعلن لعالم النفس هو أن يستشف بالقياس على الحيوان معرفة أدق وفهماً أشمل وتفسيراً أضبط لسلوك الإنسان وخصائصه النفسية. وواضح أن عالم النفس ما كان يستطيع ذلك لولا أن

سبقه دارون في القرن الماضي فأقام بنظريته في التطور الدليل على القرابة الحميمة بين الإنسان والحيوان.

ما هي أهداف علم النفس:

علم النفس شأنه في ذلك شأن غيره من العلوم يتفق معها في الأهداف الأساسية للعلم. عندما يتناول ظواهره بالدراسة والبحث وهذه الأهداف هي:

١ - الفهم والتفسير.

٢ - الضبط والتحكم.

٣ - التنبؤ.

أولاً - الفهم والتفسير:

الإنسان منذ بدء تاريخه حتى الآن يجاهد ليعرف كنه ما يحيط به من ظواهر محاولاً فهمها وتفسيرها. وعندما لم يكن يسعفه علمه أو منهجه في الوصول إلى الفهم السليم والتفسير الصائب كان يضطر إلى التفكير الغيبي يفسر به ويعلل حدوث الظواهر معتقداً في سلامته وصدقه. فظواهر الخير ترجع إلى رضاء الآلهة عن البشر، وظواهر الكوارث والمصائب ترجع إلى غضب الآلهة عليهم وانتقامها منهم. . . وهذا الضرر الذي أصاب فلاناً سببه السحر الذي سعى إليه عدوه، واستعادة هذا المريض لصحته يرجع إلى التميمة المباركة من عمل هذا العراف الطيب، وهذا المرض الذي ذهب بعقل هذا المهووس فاضطرب له سلوكه واعتل تفكره وإنما يرجع إلى شيطان نجس قد تسلل إلى جسمه فسكنه، وليس من سبيل إلى شفائه إلا بطرد هذا الشيطان الخبيث وخروجه من جسمه. وليس بخاف أننا لا زلنا حتى اليوم نجد بقايا هذا الفهم والتفسير منتشرأ بين عدد لا بأس بحجمه في مختلف المجتمعات خاصة المتخلفة منها. ذلك أن الإنسان لا يطيق الغموض ويفزع من المجهول فيسعى إلى استجلائه معتسفاً المعرفة والأسباب والعلل، حتى

أن بعض علماء النفس يعد حب الاستطلاع والرغبة في المعرفة غريزة معزوزة في البشر بحكم تكوينهم وطبيعتهم .

وبالمثل فإننا نجد أن هدف الفهم والتفسير والمعرفة من أول الأهداف الأساسية التي يسعى العالم لتحقيقها من بحثه في الظواهر التي تقع في مجال اختصاصه . فالباحث في مجال علم الطبيعة مثلاً يريد أن يعرف ويفهم ويفسر ويعلل أسباب حدوث ظاهرة طبيعية كتمدد المعادن بالحرارة على سبيل المثال . . . وعالم النفس بالمثل أيضاً يريد أن يعرف ويفهم ويفسر ويكتشف أسباب حدوث الظاهرة النفسية كالتفوق الدراسي أو التوافق المهني أو المرض الهستيرى .

ثانياً - الضبط والتحكم :

من القول المأثور أنك إذا عرفت استطعت، بمعنى أن الإنسان إذا نجح في فهم أسباب حدوث الظاهرة ومعرفة عواملها استطاع أن يؤثر في مسار الظاهرة نفسها ويتحكم في حدوثها، فيمكنه أن يهيء لها أسباب حدوثها فتحدث، كما يمكنه أن يغير في هذا العامل أو ينقص من هذا أو يزيد من ذلك، أو يلغي أو يضيف، فتأثر تبعاً لذلك الظاهرة وتتحوّر، بل إنها تصير وفق ما نريد أو تختفي وقتما نشاء .

إذن فنحن هنا نتحكم في الظاهرة ونضبطها بناء على فهمنا لمسببات حدوثها وتغييرها واختفائها وظروف كل ذلك . وبمعنى آخر فإننا بناء على تحقيق الهدف السابق (الفهم والتفسير) ننطلق لتحقيق الهدف الحالي . وإذا فإننا نتوقع أن يؤدي وجود قصور ما في معرفتنا وفهمنا وتفسيرنا للظاهرة إلى أن تقل كفاءتنا في ضبطها والتحكم فيها، ومن الصعب أن يستقيم لنا ذلك ما لم يستقيم لنا الفهم وتسلم المعرفة .

ولئن بدا لنا الهدف الأول للعلم هدفاً نظرياً بالدرجة الأولى يستهدف ترف العلم وإشباع حب الاستطلاع والرغبة في المعرفة واستجلاء الغموض -

وهو حتى بهذه النظرة لا بأس به في حد ذاته - فإن الهدف الثاني الذي نحن بصدده الآن هو في الواقع هدف تطبيقي نفعي إلى أبعد حد. فنحن نريد أن نتحكم في الظواهر حتى تحدث في الوقت المناسب وبالشكل الذي يحقق لنا الفائدة ويقينا الأضرار. فمثلاً من معرفتنا تمدد المعدن بالحرارة نصمم قضبان السكك الحديدية ونثبتها بالطريقة التي لا تجعلها تتقوس أو تتزحزح عندما تتعرض لحرارة الشمس حتى لا يضطرب سير القطار عليها. وبالمثل فإنه بناء على معرفتنا بأسباب الصحة النفسية نعمل على تهيئتها لأبنائنا وعلى علاج اضطراباتها فيهم... ولذلك فإننا نجد أنه عندما تسبق الرغبة في ضبط الظاهرة فهمها وتفسيرها يصبح من اللازم لإتمام هدف الضبط أن نبدأ أولاً بتحقيق هدف الفهم والتفسير.

ثالثاً - التنبؤ:

أما الهدف الثالث من أهداف العلم الأساسية فهو إمكانية التنبؤ بحدوث الظاهرة قبل أن تقع. وتنبؤ إمكانية تحقيق هذا الهدف - كسابقة أيضاً - على استقامة فهم الظاهرة وسلامة تفسيرها ودقة معرفتها، أي على مدى الدقة في تحقيق الهدف الأساسي الأول من أهداف العلم. وهذا التنبؤ يعتبر هدفاً تطبيقياً نفعياً بمثل ما يعتبر الهدف الأساسي الثاني والخاص بالضبط والتحكم، ذلك أننا نتوقع حدوث الظاهرة متى أدركنا توافر مقدماتها وتهيؤ عواملها مما يمكننا عند ذلك من الاستعداد لملاقاة الظاهرة بما نستطيع معه جني أكبر فوائدها وتحاشي معظم أضرارها. فمثلاً نحن نسمع عن انتشار وباء في بلد قريب، ونعلم أن العدوى من أهم مسبباته، فنتخذ من هذه المعرفة أساساً للتنبؤ بانتشار هذا المرض عندنا مستقبلاً ما لم نسارع إلى حصاره ومقاومته بتحسين المواطنين ومنعهم من السفر إلى هذا البلد الموبوء ومنع مواطني هذا البلد من الدخول إلى بلدنا إلا بعد الفحوص الطبية والتحصينات ومختلف الاحتياطات التي تمنعهم من نقل الوباء إلينا. ولنا أن نتصور - أيضاً - في حالة التنبؤ المسبق بموعد زلزال مدمر في منطقة ما كيف يمكن

لساكنيها نتيجة هذه المعرفة المسبقة تفادي الكثير من أضرار هذا الزلزال الذي يستطيع أن يضرهم أبلغ الضرر فيما لو داهمهم دون سابق توقع .

وبالمثل يدرس عالم النفس عوامل النجاح الدراسي وعوامل الفشل الدراسي ومسببات كل منهما فيمكنه استناداً على هذا أن يتنبأ بمن يحتمل نجاحه ومن يحتمل فشله قبل أن يتعرض للموقف الفعلي للدراسة، وبالتالي يستطيع أن يوجه التلاميذ أو الطلبة توجيهاً تربوياً أو مهنياً يحفظ لهم مستقبلهم التربوي والمهني، فيحقق لهم ولمجتمعهم أفضل النفع ويجنبهم أشد الضرر. ولذلك فعندما تسبق الرغبة في التنبؤ بالظاهرة فهمها وتفسيرها يصبح من الضروري لتحقيق التنبؤ أن نبدأ بتحقيق الفهم والتفسير لهذه الظاهرة.

العلاقة بين أهداف العلم :

عرضنا فيما سبق الأهداف الثلاثة الأساسية للعلم بصفة عامة ولعلم النفس بصفة خاصة. والآن ينبغي أن نناقش العلاقة بين هذه الأهداف الثلاثة. ما من شك في أن العلاقة بين هذه الأهداف الثلاثة علاقة شديدة الوثوق. وهي في جانب منها تعتبر علاقة في اتجاه واحد، بينما تعتبر من الجانب الآخر علاقة جدلية متبادلة الاتجاهات بين الأهداف الثلاثة. فمن حيث العلاقة في الاتجاه الواحد نجد أن العلم ينطلق من فهم ومعرفة أسباب الظاهرة إلى التحكم فيها بناءً على هذا الفهم وتلك المعرفة، كما أن العلم ينطلق أيضاً من فهم أسباب الظاهرة ومعرفتها - مرة أخرى - إلى التنبؤ بها، ثم أخيراً إلى ضبط ما سوف تكون عليه حتى يتحقق أكبر النفع ويقل الضرر. ومن الواضح أن دقة الضبط وكذا دقة التنبؤ سوف يعتمدان على دقة الفهم وصواب التفسير وسلامة المعرفة، بحيث يختل الضبط ويفشل التنبؤ بمقدار ما يعيب التفسير والفهم والمعرفة من نقص أو ضعف أو قصور. ومن هنا كانت حيلة العالم واهتمامه أن يصل إلى أكبر توفيق في فهمه وتفسيره لظاهرته وإحاطته بعواملها حتى يضمن تقديم أكبر فائدة لعلومه ومجتمعه.

أما من الجانب الآخر، فإن هذه العلاقة بين الأهداف الثلاثة تعتبر في

جوهرها علاقة جدلية متبادلة الاتجاهات بين كل منها. فنحن نسلم بأن التحكم والتنبؤ يعتمدان على مدى دقة الفهم وصواب التفسير وسلامة المعرفة، لكن ماذا يحدث عندما يتبين للعالم أن التحكم الذي قام به على أساس من فهمه وتفسيره ومعرفته للظاهرة لم يكن تحكماً بمستوى الدقة الذي كان يتوقعه؟ لا بدُّ له عندئذٍ من أن يعاود بحث الظاهرة من جديد محاولاً أن يعالج ما أصاب فهمه ومعرفته وتفسيره للظاهرة من ضعف أو قصور حتى تستقيم له المعرفة والفهم والتفسير ويزول ما علق بها من قصور، عندئذٍ يعاود التحكم في الظاهرة بناء على معرفته الأصوب بعوامل الظاهرة ومسبباتها، فإذا بقدرته على التحكم تزداد وتقوى. ويصدق نفس الموقف عندما يفشل التنبؤ بناء على الفهم السابق للظاهرة وعواملها، إذ لا بدُّ للعالم عندئذٍ من معاودة بحث عملية الفهم واستجلاء عوامل حدوث الظاهرة ومسبباتها، حتى ترتفع دقته في كل ذلك فتزداد تبعاً لذلك درجة نجاحه في التنبؤ. هذا وفي نفس الوقت سوف نجد أن كلاً من دقة الضبط ودقة التنبؤ المبينين على فهم الظاهرة وتفسيرها سوف يعودان بزيادة الثقة في دقة هذا الفهم وسلامة ذلك التفسير. وهكذا تستمر العلاقات الجدلية المتبادلة بين الأهداف الثلاثة للعلم دافعة العلم نحو مزيد من التقدم والرسوخ.

هذا، ونظراً للطبيعة التراكمية للعلم، فإننا نجد أن كل عالم يضيف إلى ما أضافه سابقوه، كما يستفيد من منجزاتهم في بحثه لظواهره وفي تحقيقه لأهداف علمه، وبالتالي يكمل العلماء بعضهم بعضاً ربما حتى في تحقيق أهداف العلم في بحث ظاهرة مفردة، وبغير هذا لا يطرد تقدم العلم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأهداف الأساسية للعلم على نحو ما ناقشناها الآن تؤكد أن العلم والعالم معاً ليسا مقطوعين الصلة بالمجتمع، بل إنهما في خدمته بمثل ما هما نتيجته. فالعالم نادراً ما يبحث بهدف «العلم للعلم»، وإنما يبحث أساساً بهدف «العلم للمجتمع»، كما أن مشكلات مجتمعه وظروفه وأمانيه هي التي تدفع عمله العلمي وتوجهه وترتفع به أو

تقاومه وتحاصره وتعوق مسيرته. إذ «ليس العلم ظاهرة منعزلة، تنمو بقدرتها الذاتية وتسير بقوة دفعها الخاصة وتخضع لمنطقها الداخلي البحث، بل إن تفاعل العلم مع المجتمع حقيقة لا ينكرها أحد. فحتى أشد مؤرخي العلم ميلاً إلى التفسير (القردي) لتطور العلم، لا يستطيعون أن ينكروا وجود تأثير متبادل بين العلم وبين أوضاع المجتمع الذي يظهر فيه، حتى ليكاد يصح القول بأن كل مجتمع ينال من العلم بقدر ما يريد» (١ : ٢١٧).

معيار تقدم العلم :

إننا إذا ارتضينا الأهداف الثلاثة السابقة بحسبانها الأهداف الأساسية للعلم فأغلب الظن أننا سوف نرتضي اتخاذها معياراً نقيم على أساسه مدى تقدم علم أو تخلفه. فالعلم الذي لا يستطيع أن ينجح في تحقيقها مجتمعة، بحيث يتخلف عن تحقيق أحدها هو علم متخلف بمقدار تخلفه عن تحقيق هذا، مثل علم الفلك الذي لم يستطع حتى الآن أن يتحكم في حركة كوكب أو ظهوره وأفوله في حين أن دقته في تحقيق الهدفين الآخرين دقة كبيرة، أعني التفسير والتنبؤ. كما أن العلم الذي يمكنه تحقيق الأهداف الثلاثة مجتمعة، لكن بمستوى قليل من الدقة، هو أيضاً علم متخلف.

وفي ضوء هذا المعيار الذي نضعه لتقدير تقدم العلم أو تخلفه نرى أن علم النفس قد حقق تقدماً لا بأس به كعلم يمكنه أن يحقق الأهداف الأساسية الثلاثة للعلم مجتمعة، وبدرجة مرضية من الدقة. وهذه الدرجة من الدقة، وإن لم تصل بعد إلى مستواها في العلوم الطبيعية المتقدمة، إلا أن علماء النفس يجاهدون لرفعها أكثر عن طريق محاولاتهم الذوقية لتطوير منهجهم في البحث والتقصي، وعن طريق الاستعانة بأدوات البحث المتطورة وبالأساليب الإحصائية المتقدمة. ولما كانت مسألة تقدم علم أو تخلفه، هي بالدرجة الأولى مسألة نسبية، فإن كثيراً من علماء النفس يقتنعون بما وصل إليه علمهم من تقدم خاصة مع ما هو معروف عن التعقد الشديد في طبيعة ما يدرسونه من ظواهر، وما هو معروف عن الحدائث النسبية لانسلاخ علمهم عن

الفلسفة واستقلاله عنها موضوعاً ومنهجاً، وهو حدث مضى عليه الآن قرن من الزمان فقط، منذ أن أنشأ فندت Wundt أول معمل لعلم النفس في العالم كله، وكان ذلك بجامعة ليبزج في ألمانيا عام ١٨٧٩ .

المراجع

١- دكتور فؤاد زكريا: التفكير العلمي - سلسلة عالم المعرفة - ٣ - الكويت -
١٩٧٨ .

٢ - Anastasi, A And P Foley, Differential Psychology, The Macmillan Com-
pany, New York, 1954.